ظهور الدولة الإسلامية

ظل العرب أجيالا متطاولة قابعين فى جزيرتهم قانعين بصحرائهم يتشاحنون على كلئها ويتنازعون على وشلها ومن حولهم دولتا الفرس المجوسية والروم النصرانية تتنازعان سيادة العالم ويعترف لهما العرب بالسلطان والغلب وقد ملكتا عليهم أمرهم فى أخصب بقاعهم، حتى جاء الإسلام فأوجد منهم تلك الأمة العظيمة التى قهرت هاتين الدولتين الكبيرتين وسلبتهما سلطانهما.

وقد يكون حسنًا قبل أن نتكلم على قهر العرب هاتين الدولتين العاتيتين أن نلم إلمامة خفيفة بحالهما قبل الإسلام.

الفرس

الفرس من أقدم دول العالم وأشدهم بأسا وآثارًا فى الأرض، وكانوا فى بادئ أمرهم صابئة يعبدون الشمس والقمر وغيرهما من الكواكب، ثم غلب عليهم المجوسية[١] وهى عبادة النار وصارت الدين الرسمى[٢] للدولة ثم فشت فيهم نحله الثنوية[٣] وهى القول بإلهين: إله الخير وإله الشر، ثم ظهرت بدعة المزدكية[٤] وهى مذهب إباحى هدام كما ظهرت النصرانية بمذهبيها المتعاديين: النسطورى واليعقوبى.

---

(١) على يد زرادشت.

(٢) ترتب على ذلك أن اضطهدت الدولة أتباع الملل الأخرى وبخاصة النصارى كلما وقعت حرب بينها وبين الدولة البيزنطية.

(٣) على يد مانى الزنديق.

(٤) على يد أول شيوعى عرفه العالم وهو مزرك الإباحى وكان من تعاليمه أن الله إنما جعل الأرزاق لتقسمها الناس بينهم بتآس، ومن كان عنده فضل من النساء والأموال والأمتعة فليس هو بأولى به من غيره فافترص السفلة ذلك واغتنموه وكاتفوا مزدك وشايعوه لإشباع شهواتهم الجامحة، فابتلى الناس بهم وقوى أمرهم فكانوا يدخلون على الرجل داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأولاده لا يستطيع الامتناع منهم وقد أراد مزدك تطبيق مذهبه على زوجة كسرى قباذ الذى اعتنق هذا المذهب فأجابه كسرى إلى ما أراد لكن ابنها أنوشروان لم يستسغ أن تكون أمه مستفرشة لغير أبيه، فما زال بمزدك حتى عدل عن رغبته بعد أن =

وهكذا تعددت فيهم النحل والأديان، وتنازعتهم المعتقدات الفاسدة، وشغلتهم عما يجب عليهم لمجتمعهم.

ولم تكن حالتهم السياسية بأحسن من حالتهم الدينية، فقد كان بينهم وبين الهياطلة فى الشرق والترك فى الشمال حروب لا يخمد أوارها كما كان لهم جيرانهم من الرومان وقائع متوالية وملاحم متتالية وكان من أثر تخبطهم فى سياستهم أن عملوا على القضاء على مملكة المناذرة التى كانت درعا لهم فتجرأت عليهم القبائل العربية ولا سيما قبيلة بكر بن وائل فإنها حاربتها وانتصرت عليها فى موقعة «ذى قار»[1] بين سنتى ٦٠٤- ٦١١م.

وكم من مرة نزل أبناء الملوك وذوو قرابتهم على الملك وأوقدوا نيران الحرب والفتن الداخلية وليس أدل على اضطرابهم السياسى من أنه فى السنوات الخمس التى سبقت الفتح الإسلامى والمقارنة لأوائله (١٠- ١٥هـ) تعاقب على عرش فارس أكثر من عشرة ملوك ما بين رجل وامرأة وصبى ومغتصب للملك. وكان ملوكهم منغمسين فى اللهو والترف مسرفين فى الملاذ والشهوات وكانوا يسوقون الرعية إلى الحروب سوقا لاهوادة فيه.

كانت هذه الحروب الطاحنة وذلك البذخ البالغ مدعاة لاستنزاف دماء الشعب ولفرض الضرائب الفادحة وجمع الأموال فى قسوة وعنف مما أدى إلى أن شل اقتصاد البلاد ودبت عوامل الفساد والانحلال فى الدولة التى كانت تنافس الرومان فى سيادة العالم.

الروم

بلغت دولة الروم البزنطية من القوة والسلطان ما لم تبلغه دولة أخرى فى زمانها ولكن قد التاث أمرها أخيرًا: فالنزاع على الحكم كان شديدًا، وموارد

= انحنى على قدميه يقبلها وأسر أنوشروان ذلك فى نفسه وما كاد يسند إليه أمر العرش حتى عنى بالقضاء على هذا المذهب الذى أحدث بالبلاد هزة اجتماعية عنيفة، فأهرق دم مزدك وقتل أكثر من مائة ألف من أتباعه، اهـ من مذكرة الخلفاء للأستاذ أحمد مصباح.

(١) هو أول نصر أحرزه العرب على العجم فزادت ثقتهم بأنفسهم حتى إذا أذن الله باضطلاعهم بدعوة الإسلام لم يهنوا ولم يترددوا.

الدولة الاقتصادية قد نضبت أو كادت، من جراء الحروب الخارجية والفتن الداخلية وبذخ الأباطرة، مما أدى إلى إثقال الشعب بالضرائب وجبايتها بالشدة والقسوة، الأمر الذى أدى إلى تعطيل اقتصادها وسوء أحوالها.

غير أن الخلاف الدينى كان أشد تأثيراً من غيره، فقد كانت الدولة تدين أولا بالوثنية ثم دخلتها المسيحية فصب الأباطرة جام غضبهم على معتنقيها ولكن بمرور الزمن انتشرت المسيحية حتى صارت الدين الرسمى للدولة فى عهد قسطنطين الأكبر (٣٢٤- ٣٣٧م) فوقع كثير من المنازعات والمشاحنات بين أرباب الديانتين، وفى خلال هذه المنازعات انقسم المسيحيون على أنفسهم فى شأن عقيدتهم وصاروا فرقا، يعقوبية ونسطورية وملكانية واشتد الجدل بينهم وتعددت آراؤهم ومجامعهم وكان المذهب الرسمى للدولة هو الملكانية، فكانت تعمل على نشره وأخذ الناس به كرها واضطهاد أرباب الفرق الأخرى، وقد أدت هذه العوامل إلى أن يسود الناس القلق والاضطراب وعدم الاكتراث بأمور الدولة وأحوالها

سؤال يرد للخاطر: يتساءل بعض الناس عن الدافع لأبى بكر لأن يدفع بالعرب إلى غزو الفرس والروم، أهو الرغبة فى نشر الدعوة الإسلامية خارج الجزيرة العربية؟ أم هو السياسة؟ أم ما كانوا فيه من جدب وقحط بينما كانت الدولتان تنعمان بالخيرات؟

وجواب هذا التساؤل سهل ميسور فإن الحق والواقع أن نشر الدعوة الإسلامية هو العامل الحقيقى فى تزجية الجيوش لغزو الفرس والروم وكل منصف يتتبع ما كان يقدمه قواد الجيوش الإسلامية بين أيديهم من الدعوة إلى الله قبل الالتحام بأعدائهم يدرك ذلك فى يسر. وحسبنا فى هذا المقام أن نذكر الكتاب الذى أرسله خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس والذى يقول فيه «بسم الله الرحمن الرحيم، من خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس، أما بعد فأسلموا تسلموا، وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدوا الجزية، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر».

وما كان يقوله رؤساء الوفود الإسلامية لكسرى يزدجرد ولقائده رستم وغيره؛ ومن ذلك ما قاله النعمان بن مقرن ليزدجرد قبل موقعة القادسية: «ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين سنَّ الحسن وقبَّح القبيح كله، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء، فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم ببلادكم».

والقول بأن ذلك كان سياسة من أبى بكر، إذ أنه أراد أن يشغل العرب عن ردة ثانية مع علمه بأن الحرب ترضى نزعة العربى الكامنة فيه -قول لا يثبت أمام التاريخ والنقد الصحيح، لأن الإسلام قد انتزع منهم الجاهلية الأولى والعصبية القبلية وجعلهم إخوة متحابين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فدواعى الحروب عند العرب فى جاهليتهم قد استلها الإسلام من نفوسهم، وعلى فرض بقاء أثر لهذه النزعة فهل كان الأمر يتطلب تزجية كل هذه الجيوش وإرسالها إلى كل من الفرس والروم؟

ثم ما بالنا نراهم بعد أن عرفوا الدنيا ونعيمها ونشأ منهم جيل وجيل وهم بعيدون عن صحرائهم وتقاليدهم الأولى لا يتوانون عن دعوتهم ومهمتهم التى ندبهم إليها دينهم.

والخوف من ردة ثانية احتمال بعيد، على أنه إن كان لاستدعى الأمر وجود جيش مرابط فى حاضرة الدولة يكون على استعداد للضرب على يد من تسول له نفسه الرجوع عن الإسلام، ولكن ذلك لم يكن.

ولو كان الخوف من ردة ثانية هو الدافع لكانت أغلبية الجيوش على الأقل ممن يخشى منهم الردة ولكن الأمر كان بالعكس فإن الذين لم يرتدوا كانوا هم قوام كل الجيوش التى أرسلت لغزو الفرس والروم بل إن أبا بكر نفسه ما كان يسمح لقواده بالاستعانة بمرتد، وفى ذلك وحده إقناع لمن يريد أن يقتنع.

الفتوح فى بلاد الروم

دمشق:

انتهت موقعة اليرموك بهزيمة الروم، واستخلف عليها أبو عبيدة بشير ابن كعب الحيرى، حتى لا يغتال بِردَّة ولا تقطع عليه الروم موارده. وسار حتى نزل بالصفر، فأتته الأخبار بأن الروم اجتمعوا بفحل، وأن مدداً من حمص أتى أهل دمشق، فاستطلع رأى عمر فى البداءة بأى الناحيتين: فحل أو دمشق؟ فجاءه جوابه يقول:

أما بعد فابدءوا بدمشق فانهدوا لها فإنها حصن الشام وبيت ملكهم واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم فى نحورهم.

صدع أبو عبيدة بالأمر وسار إلى دمشق وحاصرها، ووضع الجنود على الطرق المؤدية إليها لقطع الإمدادات عنها وجعل على أبوابها كبار قواده، وشدد الحصار عليها نحواً من سبعين ليلة، وأهلها يرجون الغياث ويأملون النجدة من هرقل الذى كان فى حمص فلما يئسوا من الغياث أبلسوا فى أمرهم وازداد طمع المسلمين فيهم.

وكان خالد بن الوليد لا ينام ولا ينيم ولا يبيت إلا على تعبئة ولا يخفى عليه من أمر عدوه شىء، فبلغه أنه ولد لبطريقهم مولود وأنه صنع طعاما، ودعى القوم يأكلون ويشربون. وكان قد اتخذ أوهاقا وحبالا كهيئة السلاليم. فلما بلغه أن القوم غافلون عن مواقفهم انتهز هذه الفرصة ونهض بمن معه من الجند حتى انتهى إلى الباب الذى يليه فرمى الشرف بالحبال فما ثبت لهم وهقان حتى تسلق فيهما بعض أصحابه ولم يدعوا أحبولة إلا أثبتوها. وحذر خالد عامة أصحابه، وانتهى إلى أول من يليه فأنامهم وثار أهل المدينة وفزع الناس، وأعمل خالد السيف فى المقاتلة حتى لم يبق مما يلى بابه مقاتل.

وكان المسلمون قد دعوا أهل دمشق إلى المشاطرة فأبوا وأبعدوا. فلما استحرّ فيهم سيف خالد عرضوا ما رفضوا، فقبل منهم أبو عبيدة فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم، ودخل خالد مما يليه عنوة، فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح وكان صلحهم على المقاسمة. واستخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبى سفيان. وأمره بفتح ما يجاورها ففتح صيدا وبيروت وغيرهما.

فحل:

انتهى المسلمون من دمشق، وتبعا لرأى الخليفة وما يوجبه الحزم اتجهوا إلى «فحل» من أرض الأردن إذ من خطل الرأى أن يتجهوا إلى حمص أو غيرها ووراهم تلك القوة العظيمة التى قدرت بثمانين ألفًا خصوصًا وأن من بفحل جُنة الروم وأن الشام يعدهم سلم.

سار أبو عبيدة إلى فحل، وأمير الناس شرحبيل ابن حسنة إذ هو صاحب السلطان فى تلك المنطقة من قبل أبى بكر وكان الروم قد بثقوا المياه عليهم، فأردغت الأرض ثم وحلت، واغتم لذلك المسلمون فى بادئ الأمر وبعد حصار دام طويلاً ظنوا بالمسلمين غرة فهجموا عليهم واقتتلوا أشد قتال ليلتهم ويومهم إلى الليل، فلما جن الليل عليهم حاروا وانهزموا وهم حيارى وضلوا الطريق فأسلمتهم هزيمتهم إلى الوحل وركبهم المسلمون، فلم يفلت منهم إلا الشريد وكان الوحل الذى اغتم له المسلمون أولا أكبر معين لهم على القضاء على الروم.

موقعة مرج الروم:

لما وصل إلى هرقل هزيمة جنده فى دمشق و«فحل» وأن المسلمين عزموا على قصد حمص، أرسل إليهم جيشًا بقيادة توذر البطريق وأردفه بآخر وعليه شنس مددًا له، ودرءًا لأهل حمص.

التقى المسلمون بالروم فى مرج الروم غربى دمشق فكان أبو عبيدة بإزاء شنس وخالد بإزاء توذر وأصبح المسلمون وأمامهم شنس وحده والأرض خلو من توذر، وعلم خالد أن توذر فيمن معه سار نحو دمشق فاقتفى أثره وما إن نشبت المعركة بينه وبين يزيد الذى استخلفه أبو عبيدة على دمشق طلع عليهم خالد من خلفهم فأخذتهم رماح يزيد من أمامهم وسيوف خالد من خلفهم فلم يفلت منهم إلا الشريد.

حمص:

قصد المسلمون «حمص» فحاصروها وأقاموا على حصارها الشتاء كله وكان الروم يأملون أن يهلكهم البرد فلما ذهب الشتاء وانقطع الرجاء طلبوا الصلح فصالحهم المسلمون على مثل صلح أهل دمشق.

الحاضر:

بعد أن فتحت حمص أرسل أبو عبيدة خالدًا إلى قنسرين، فلما نزل الحاضر التقى بجيش للروم عليه ميناس -وهو أعظمهم بعد هرقل- فقاتلهم قتالا شديدًا، وقتل ميناس وتساقط الروم عليه حتى هلكلوا عن آخرهم.

قنسرين:

لما انتهى خالد من الحاضر سار إلى قنسرين فتحصن أهلها منه فأرسل إليهم: «لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا» فنظروا فى أمرهم وطلبوا الصلح، فأبى إلا على خراب المدينة وكان ما أراد فأخربها.

كان هرقل قد ترك حمص إلى الرها فلما أباد خالد الروم بالحاضر وأخرب قنسرين يئس هرقل من بقاء الشام فى يده فودع سوريا الوداع الأخير وهو يقول: «عليك السلام يا سوريا سلامًا لا اجتماع بعده ولا يعود إليك رومى أبدًا».

ولما كان من أمر خالد ما كان من هذه الفـتوح العظيمة رجع عمر عن رأية فيه وقال فيه قولته المشهورة «أمَّر خالد نفسه! يرحم الله أبا بكر! هو كان أعلم بالرجال منى»!

وبانتقـال هرقل إلى القسطنطينيـة خلا الجو لأبى عبـيدة فى شمـال الشام ففتح أقـاليمه الواحد تلو الآخر واتصلت البلاد الـتى دانت للمسلمين بالشام بالبلاد التى دانت لهم بالعراق.

أجنادين:

زحف عمـرو بن العاص على أجنادين ،كان بها الأرطبـون (أرتبون) وهو أدهى الروم وأبعدهم غورًا ومـعه جيش كبير، ولما علم عـمر بذلك قال: «قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عم نتفرج».

اقتـتل الفريقـان قتـالا شديدًا يشبـه قتـال اليرموك ثـم انهزم الروم وأوى الأرطبون إلى إيليا.

●●●